العمل الاجتماعيّ
في عظات الذهبيّ الفم على لو ١٩: ١٦-٣١ (١)

د. دانيال عيّوش
جامعة البلمند

مقدمـــة

تتضمن سلسلة كتابات الآباء اليونان Patrologia Graeca سبع عظاتٍ أصليّة للقديس يوحنا حول مثل الإنجيلي لوقا عن الغني ولعازر (ذا ٨٤:٣٦٩-٤٥٠١؛ لـــو ١٦: ١٩-٣١). وبحسب كاترين روث، التي ترجمت ستّة منها إلى الانكليزية، فقد ألقى قديسنا عظاته السبع هذه في أنطاكيا عندما كان كاهنًا هناك، ربما بين العامين ٣٨٨ و٣٨٩. أُلقيت العظات الأربعة الأولى منها في فترة تقلّ عن الشهر، متضمنةً تفسيرًا آيةً بآية للنص الإنجيليّ، ولُبّ تعليم القديس عن هذا المثل التربويّ. لذلك، تُعتبَر هذه العظات المصدر الأساسي في هذه الدراسة.

إذا بحث المرء عن السبب الذي دعا الذهبي الفم إلى أن يختار هذا المثل، فما عليه إلا أن يعرف نسبة الفقراء والأغنياء في أنطاكيا كما يعلنها القديس في عظاته عن إنجيل متّى. هناك، يقول حرفيًا، عُشر مدينته كان غنيًّا جدًّا، وعُشرها الآخر كان فقيرًا جدًّا (العظة عن متّى ٦٦: ٣، PG 58:630). هذا ما يُظهِر أن رعاياه كانوا يعيشون في بحبوحةٍ مالية، ولكنهم لم يفعلوا سوى القليل ليلغوا الفقر في المدينة. لا يتردّد الذهبيّ الفم في توبيخ سامعيه بأفضل طريقةٍ ممكنة، من خلال عرضه الواضح والمفصّل عن هذا الموضوع مرتكزًا على الإعلان الإلهي في الأسفار المقدسة.

١- محاور التعليم في العمل الاجتماعي

إذا ما بحثنا عن مبادئ التعليم اللاهوتيّ الوارد في العظات الأربع، نجد أنّ تعليم الذهبيّ الفم عن العمل الاجتماعي يدور حول ثلاث محاور لاهوتية:

١. إعلان رؤية جديدة للعالم: الله هو ملك وقاضٍ يحكم العالم بحسب ما كشفه عن ملكوته الآتي.
٢. قلب مبدأ "الجزاء بمقدار العمل" بناءً على تعليم الملكوت.
٣. رسم الطريق التي تقود البشر إلى الله وهي: طريق التوبة والاعتراف والعمل.

تترسخ هذه المحاور الثلاثة، ليس فقط في النص اللوقاوي، بل أيضًا في عدد كبير من الأسفار المقدسة، التي يستشهد بها الذهبيّ الفم مرارًا كثيرة ويعلّق عليها. ستغوص الصفحات التالية في تحليل كلٍ من هذه المحاور اللاهوتية المهمة.

٢- الرؤية الجديدة للعالم: العالم الحقيقيّ آتٍ

ثمة واقع لا نقاش له في كتابات الذهبيّ الفم: الله هو ملكٌ وقاضٍ على

(١) هذه المقالة ترجمة جزئية من مقالتي بالإنكليزيّة: "Chrysostom's Unveiling of a New Ethos" المنشورة في:
Dumitrascu N. (Ed.), *Theology and Society in the Work of Saint John Chrysostom*, University of Oradea (Romania), 2007.

الخليقة بأسرها. لا يتوقف الذهبيّ الفم عند هذه الفكرة بشكل مطول، لكنّها كامنة في صلب كل عظاته. ففي العظة الثانية، مثلاً، يتكلّم عن "مقعد الحكم" الذي يجلس عليه كل إنسانٍ أمام اللّه (PG 48:985). وبعد صفحات قليلة في العظة نفسها يضرب القديس مثلاً آخر حيث الله هو الملك، وأغنياء هذا العالم هم خدامه في خزائن المملكة (PG 48:988). بحسب هذا المثل للأغنياء وظيفة أساسية، وهي أن يوزّعوا ثروة الله على الفقراء. وإنْ لم يفعلوا هكذا، فيستحقّون العقاب. الممتلكات التي يحوزها الأغنياء ليست مُلكَهم فعلاً، لكنها تعود إلى اللّه، ويجب أن تُوزَّع على عبيده بحسب حاجاتهم (PG 48:988). وبما أن الله قد أظهر "لُطفَه المحِب" (PG 48:1007)، انفتح للإنسان باب الأمل في الخلاص إذا بات يعمل الأعمال الصالحة والمُحبّة والطيّبة.

وإذا كان الله قاضيًا رحيمًا، فالناس ليسوا سوى صانعي الإحسان. إنهم مدعوون لأنْ يعيشوا المحبة، أي أن يعطوا ويشاركوا خيراتهم حتى مع مَن لا يستحقونها، تمامًا كما يفعل الله القاضي والسيد على كل البشر الذي يُظهِر رحمته العظمى، بكل حريةٍ وغزارة، للمؤمنين به الذين هم، بكلّ حالٍ من الأحوال، غيرُ مستحقين للخيرات التي يتلقّونها من الرب (PG 48:989-90). يعلّم القديس يوحنا عن مَلَكية اللّه، ويشرح دور البشر ضمن هذا الترتيب. وهذا هو الإطار الذي توضع فيه أيضًا سلوكيات الإنجيلي لوقا الجديدة. يضيف القديس يوحنا على تعابير الإنجيلي المصطلح المعروف بـ"محبة البشر" (philanthropy) الذي يرد في التسابيح الليتورجية للكنيسة الأرثوذكسية بكثرة، والذي يجب أن يُفهم من هذا المنظار: رحمةُ الله كما تظهر في الكتاب المقدس في أخبار أعماله الخلاصية نحو البشر.

يعالج الجزء الأخير من العظة الثالثة موضوع العقاب وذلك في مقطع طويل يشكّل حوالى ثُلث العظة. في هذا النص يتجلى بوضوح أنّ الله هو سيّد التاريخ، وأنّ كلّ المخلوقات والبشر تخضع له. وما يعتقده البشر أنه فوضى وخلل في الخليقة، فهو في الحقيقة حاصل تحت سيطرة الله ولديه سببٌ حكيم لكي يسمح بحدوثه. إذا نظرنا إلى العالم بأعين الملكوت، تأخذ الخليقة أبعادًا جديدة وتتجلى بحقيقتها. وهكذا نصل إلى الجزء الثاني من هذا المحور اللاهوتي الناتج عن الاعتراف بأن الله وحده هو الملك والقاضي على الكل: العالم الحقيقيّ هو العالم الآتي.

ولكي يشرح الذهبيّ الفم هذه الفكرة يلجأ إلى قالبَين أدبيّين يونانيّين معروفين: هما حلبة المصارعين والمسرح. يرى يوحنا حياتنا الحاضرة كأنها حلبة يجري فيها الصراع، وأنّ المصارع الناجح هو مَن يفوز بالرغم من الجروح، فينال إكليلَ النصر (PG 48:984.1000). وإذا لم تكن الحياة كحلبة الصراع، فهي تشبه المسرح حيث يرتدي كلٌّ منّا أقنعة الثروة أو الفقر (PG 48:986). لذلك يدعو مستمعيه إلى أن يحسموا كل الأمور بينما هم في هذا العالم، لكي يحضروا أمام كرسيّ القضاء بدون دينونة (PG 48:985).

عندما يشير الذهبيّ الفم إلى التغيير الجذريّ الذي يحصل لوضعَي الغني ولعازر، يقول حرفيًّا إنّ "الوضع قد انقلب" (PG 48:986) لكي يُظهِر كم هي مختلفة المعايير بين هذا العالم والملكوت، أي العالم الآتي. ليس هناك من طريقة أخرى لتفسير السؤال التقليديّ عن سبب معاناة الأبرار واستمتاع الأشرار بالحياة. وإذا نُظر إلى الأمور بمنظار الملكوت الآتي، فمُعاناة البارّ هي دعوةٌ للأشرار للعودة إلى الله، واستمتاع الشرير بملذّات الحياة هو إنذار حيٍّ للأبرار (PG 48:987-88). وإعلان الله عن الدهر الآتي هو بالحقيقة البرهان الأعظم على رحمته التي لا تُحَدّ. لقد أتى المسيح ليكشف عمّا هو مهمّ وما هو تافه في الحياة الآتية، لكي يبدأ المؤمنون أن يختبروا هذه القيم في هذا العالم، وليتذوّقوا بواكير الثواب الآتي (PG 48:996). المبدأ القائل بانقلاب الوضع عند تأسيس الملكوت يكمن في كلّ صفحات الإنجيل بحسب القديس لوقا، كما يؤكد العديد من الدارسين. فالعظة في السهل (لو ٦: ٢٠-٣٩)، على

سبيل المثال، تقوم على هذا المبدأ منذ جملتها الأولى: "طوبى للفقراء لأنّ لهم ملكوت السموات" (الآية ٢٠).

٣. علاقة الجزاء بالعمل

انطلاقًا من المفهوم اللاهوتي القائل بانقلاب الواقع في العالم الآتي، لا بدّ من إعادة تحديد معنى النجاح ومعنى الفشل في هذا العالم. عُرفت الحكمة في العهد القديم دومًا بأن الفعل الحميد يؤثّر على فاعله إيجابًا، بينما العمل الشرير يؤثّر عليه سلبًا (Von Rad, 128f). يستعيد قديسنا الأنطاكي هذا المبدأ ويسلّط عليه الضوء من وجهة نظرٍ أخروية: "لا ننظرنّ باهتمامٍ في ما هو حاضر، بل لنفتكرنّ بما هو آتٍ" (PG 48:980). هذه هي الجملة المفتاح لنفهم تصوّر الذهبي الفم الأخروي لعلاقة الجزاء بالعمل: قد لا يُعطى الجزاء الحسن للمرء في هذه الحياة، ولكن سيأتي وقتٌ سيحصل فيه الأبرار والأشرار على مكافأتهم (PG 48:1011). يُعتبر هذا مثالاً واضحًا عن إضافة البُعد الأخرويّ إلى علاقة الجزاء بالعمل. يرتأي العديد من دارسيّ الكتاب المقدس أن التعليم السلوكيّ في العهد الجديد مبني على فكرة الحضور الوشيك للآخرة وعلى قاعدة الملكوت الآتي (Schrage, 28-55) وهذا صحيح خاصةً في لوقا (Ayuch, 212-214; Löning, 156).

بعيدًا عن أي تعليم سلوكيّ خاص بالمذاهب الفلسفية المعاصرة له (Schrage, 39)، يؤكّد الذهبي الفم أن للجزاء سمة أخروية كونها عطية مجانية من الله. مبدأ الجزاء يختلف عن مبدأ المكافأة والتعويض. من أجل توضيح هذه الفكرة، يقارن القديس بين الضيافة التي يحظى بها رجل غنيّ ومشهور، وبين تلك التي ينالها مَن هو في عوز. ففي الحالة الأولى ينال المضيف أجره في هذه الحياة، بينما، في الثانية، فالمضيف يرجو أن ينال الأجر في الحياة الآتية. هنا يتّفق القديس يوحنا تمامًا مع جوهر التعليم اللوقاوي في "العظة في السهل"، وخاصةً في السؤال المكرّر ثلاث مراتٍ: "إذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم، فأيُّ فضلٍ لكم؟" (لو ٦: ٣٢-٣٥). ويضرب الذهبيّ الفم مثلاً آخر عندما يشير إلى مثل الرجل الغني في لو ١٢: ١٦-٢١، ويختصر تعليمه السلوكيّ-الاجتماعي بالقول: "مخازنُ الحبوب الأكثرُ أمانًا ليست تلك ذات الجدران، لكنها بطون الفقراء" (PG 48:984). لا شيء يحفظ غنى المرء آمنًا ويوظّفه بحكمةٍ إلا المشاركة مع الذين هم في عوز.

فقط من وجهة النظر هذه يمكن للمرء أن يفهم لماذا يسخر القديس من الحياة المترفة. ففي العظة الأولى، مثلاً، يقول إن الجنود لا يتعطّرون ولا يسمنون. ثم يتجرّأ ويقول بأن على البطون ألاّ تصبح ثقيلة لتتمكن من العمل. وبالتالي ما هي السعادة في الحياة ولماذا؟ نجد الجواب عن هذا السؤال في نهاية العظة الأولى: "مستحضرين في أذهانكم كل هذه الأفكار، عندئذٍ، يا أحبائي، لندعونّ سعيدًا ليس من هو غنيّ، بل من هو فاضل؛ وندعو تعيسًا ليس من هو فقير، بل من هو رذيل" (PG 48:980) . وفي العظة الثالثة، يدعو الذهبيّ الفم سامعيه إلى أن يعيشوا في الحكمة وأن يثابروا بعيدًا عن كل ترف (PG 48:1000).

يخطو الذهبيّ الفم خطوةً جديدة ويعتبر الطمعَ ألدَّ أعداء المؤمن، لأنه يكسر البعد الأخروي للجزاء. هذا ما يدعوه في العظة الثانية الكشف عن مبدأ سلوكيٍّ أساسي بالنسبة إليه، تأتي صياغته -بحسب روث (Roth)- من الفلسفة الأخلاقية اليونانية الوثنية: "عندما ترى إنسانًا طمّاعًا في الكثير من الأشياء، فعليك أن تعتبره الأفقر في كلّ شيء، حتى ولو نال مال الجميع. بينما إن رأيت إنسانًا لديه القليل من الحاجات، فعليك أن تعتبره الأغنى في كل شيء، حتى ولو لم يملك شيئًا" (Roth, 40). في العربية، تقول الحكمة الشعبية إنّ "القناعة كنزٌ لا يفنى"، ويُغبَّط الإنسان الذي ينظر إلى كلّ الأمور بـ"عينٍ شبعى". ربما تكون الصياغة التي يستحضرها القديس هنا تأتي من الفلسفة اليونانية، لكنه يختارها هنا لأنها تتّفق وروح الإنجيل. لا يستورد تعابيرَ غير موجودة ليضمّنها تعليمَه، لكنه يتبنّى صِيغًا معروفة عند سامعيه

يمكنها أن تساعد المؤمنين على تقبّل تعاليم الإنجيل بشكل أسهل.

٤. الطريق إلى الله هي طريق التوبة والاعتراف والعمل

هذا هو المحور اللاهوتي الثالث في تعليم الذهبيّ الفم حول العمل الاجتماعيّ. تشكل الثُلاثية "التوبة والاعتراف والعمل" نظامًا ثابتًا في كِلا عهدَي الكتاب المقدس، ونذكر، على سبيل المثال، لاهوت الأسفار التاريخية العائد إلى مدرسة تثنية الاشتراع (من يشوع بن نون إلى ٢ ملوك)، وأيضًا الصلاة الربية كما ينقلها كلٌّ من لوقا ومتّى، وأيضًا عظة يوحنا المعمدان في لو ٣: ١-٢٠، وخطبة بطرس التي يلقيها في العنصرة في أعمال الرسل ٢.

تبدأ مسيرة الطريق بالتوبة والعودة إلى الله. من هذا المنطلق يشرح الذهبيّ الفم لسامعيه لماذا يسمح الله بوجود فقراء أبرار وبوجود أغنياء أشرار. بالنسبة إليه هاتان المجموعتان تتعلّم الواحدة من الأخرى. فعلى الأشرار أن يعلَموا قساوة جزائهم إذا ما بقوا على ما هم عليه، وأن ينتبهوا إلى أنفسهم ويحاولوا إصلاحها قبل أن ينقضي الزمن الذي يُسمح فيه بأعمال الإحسان (PG 48:1008).

التوبة واجب على الإنسان. ولكي يسلّط الضوء على هذا الأمر يذكر الذهبيّ الفم أعمال شخصيتين من العهد القديم: داود الذي بكى بكاء مرًّا حتى ملأ سريره بالدموع والاعترافات، ويعقوب الذي افترش الأرض حتى استطاع أن يعاين الله (PG 48:973). لقد كانت التوبة العنصرَ المميز في تعليم يوحنا المعمدان وفي تبشير يسوع: يوحنا المعمدان "جاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا" (لو ٣: ٣) والجملة الافتتاحية ليسوع كانت "قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (مر ١: ١٥).

لكن التوبة وحدها لا تكفي، لذلك أضاف لوقا في أخباره حول التوبة السؤال التالي: "ماذا يجب أن نفعل؟" (لو ٣: ١٠، ١٢، ١٤؛ ١٠: ١٥؛ ١٨: ١٨؛ أع٢: ٣٧؛ ١٦: ٣٠؛ ٢٢: ١٠). يعطي لوقا في جوابه على هذا السؤال بُعدًا سلوكيًّا للتوبة والدليل الأساس الذي يوجّه قرّاءه إلى تصرّفٍ جديد يهتمّ أولاً وبكل التزام بالفقراء وبكل مَن هم في حاجة (Ayuch, 49-51).

لذلك يعلن الذهبيّ الفم أن الخطيئة الكبرى التي ارتكبها الغني هي أنه لم يبادر في مساعدة المحتاجين (PG 48:971). يوصَف الرجل الغني في لوقا كشخصٍ يعرف الطريق نحو الله، إذ يعترف بإبراهيم وموسى والأنبياء. فهو يعتبر إبراهيم أباه (الآيتان ٢٤ و ٣٠؛ Fitzmyer, 761). للغني خلفيّةٌ دينية، لكنه لم يخطُ الخطوة الأولى في هذه الطريق إذ لم يتُب و لم يعترف بخطاياه و لم يعمل خيرًا لقريبه.

لا يترتّب على الأغنياء فقط أن يقوموا بأفعالٍ تليق بالتوبة، بل على الفقراء أيضًا أن يقوموا بأعمالٍ مماثلة. فيقول الذهبي الفم في عظته الأولى إنّ لعازر قد وُضع مثالاً للصبر والتحمّل. فلعازر لا يعزّي المؤمنين كونه عاثر الحظ، لكنه يعزّيهم لأنه عرف كيف يتعامل مع وضعه العسير. قد حلّ به كل الملمّات التي قد تحلّ بالمرء (والتي يعدّها الذهبي الفم تسعةً)، وقد عرف كيف يتجاوزها جميعها بالرجاء والإيمان.

الخاتمة

يبدي الذهبيّ الفم اهتمامه الرعائيّ في كل سطرٍ من سطور عظاته الأربعة عن مثل الغني ولعازر. فهو يكشف لسامعيه رؤيةً جديدة للعالم تقلب المفاهيم المسلَّمة وتعيد بناء مجموعة القيم في المجتمع الدنيوي. تعليمه عن العمل الاجتماعي يقترح تغييرًا جذريًا في الموقف تجاه القريب يرتكز على تعريفٍ جديدٍ للتصرّف السلوكي بحسب إعلان يسوع للملكوت الآتي. لا شك أن دراسة إرث الذهبي الفم بالحوار مع النقد الكتابي الحديث سيفتح طرقًا جديدةً لاستيعاب تعليمه ولإعادة صياغته في لاهوت يخاطب الإنسان المعاصر.

المراجع

Ayuch, D.A., *Sozialethisches Handeln als Ausdruck einer eschatologischen Vision* (MthA 54). Oros Verlag: Altenberge, 1998.

Bovon, F., *L'Evangile selon Saint Luc 15,1 - 19,27.* 3 (CNT IIIc). Labor et Fides: Geneve, 2001.

Fitzmyer, J.A., *El Evangelio según Lucas III. Traducción y comentario. Capítulos 8,22-18,14.* Cristiandad: Madrid, 1987.

John Chrysostom, "De Lazaro," in: J.P. Migne, *Patrologiae cursus completus. Series graeca vol. 48.* Migne: Paris, 1857-1866, p. 963-1054.

John Chrysostom, *On Wealth and Poverty*, translated and introduced by C.P. Roth. SVSP: Crestwood (New York), 1984.

Loening, K., *Das Geschichtswerk des Lukas*. Band 2: *Der Weg Jesu*. Kohlhammer: Stutgart, 2006.

Manguel, A., *Una historia de la lectura*. Alianza: Madrid, 2005.

Schrage, W., *Ética del Nuevo Testamento*. Ediciones Sügueme: Salamanca, 1987.

Tarazi, P.N., *The New Testament: An Introduction.* Vol. 2 *Luke and Acts*. SVSP: Crestwood (New York), 2001.

Von Rad, G., *Wisdom in Israel*, Trans. J. D. Martin. SCM Press: London, 1972.

جامعة البلمند
معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي

برعاية صاحب الغبطة البطريرك اغناطيوس الرابع الكلّي الطوبى
دعا معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي لمشاركته في إحياء اليوبيل ١٦٠٠ لرقاد القديس يوحنا الذهبيّ الفم من خلال المحاضرات التالية:

السبت ١٠ تشرين الثاني ٢٠٠٧:

سلسلة محاضرات في دير سيّدة البلمند:

٩:٠٠ - ١٠:٣٠ "مكانة الذهبي الفم في كنائس الشرق والغرب"
د.كارل بينغيرا مدير معهد تاريخ الكنائس الشرقية في جامعة ماربورغ/المانيا

١٠:٤٥ - ١١:٣٠ "إرساء أخلاق جديدة:
التعليم الاجتماعي في عظات الذهبي الفم الأربع
على لوقا ١٩: ١٦-٣١"
د. دانيال عيّوش (البلمند)

١١:٣٠ - ١٢:١٥ "حقيقة الخلاف بين الذهبي الفم واليهود"
الأب د. أيوب شهوان (الكسليك)